

الدولة الفاطمية في المغرب

٢٩٦-٣٦٢ هـ / ٩٠٩-٩٧٣ م

رأينا أن تاريخ المغرب في ظلال الإسلام ، سلسلة من التجارب المتنوعة في الحكم والإدارة ، وأن أهل المغرب الأصلاء - وهم البربر - والعرب الذين استقروا في البلاد ، أثناء الفتح أو بعده ، وتحولوا إلى عرب أفارقة أو عرب بلديين ، خاضوا غمار تجارب وصراعات عنيفة متوالية تهدف إلى إقامة حكم إسلامي في ذلك القطر الفسيح ، الذي استيقظ مع الإسلام من سبات القرون ، ودخل ميدان التاريخ يجرب حظه أو يبحث عن مصيره . ومن ناحية أخرى جهدت الحكومة المركزية ، سواء في دمشق أو في بغداد ، في السيطرة على هذه البلاد وتحويلها إلى ولاية إسلامية خاضعة طائعة ، تؤدي للدولة ما يقرر عليها من مال ، وتدين بالطاعة للوالي الذي ترسله الدولة .

ولم تقلح الدولة الأموية أو العباسية في ذلك ، لأن شعب المغرب من برقة إلى طنجة وبلاد السوس ، كان شعباً بكرأ عفاً ، وجد نفسه في الإسلام وتفتحت مواهبه على عقيدته وشريعته ، فأسلمت من جماعات هذا الشعب أعداد غفيرة ، انضمت إلى جيوش الإسلام الفاتحة ، وأكملت معها فتح المغرب إلى السوس أيام موسى بن نصير خاصة ، وأسهمت بنصيب الأسد في فتح الأندلس ، فأصبحت بذلك أعضاء أصيلة في جماعة الإسلام الكبرى ، وطالبت بنصيبها الحق الذي يعطيها الإسلام إياه ، واندست في صفوف بعضها جماعات الخوارج تؤلبهم على الدولة الأموية ، وتبين لهم حقوقهم التي يمنحهم إياها الإسلام ، فكانت مذاهب الخارجية وثورة أفريقية وصراع العرب والبربر ، وقامت في نواحي أفريقية والمغرب الكيانات السياسية المتنوعة ، ما بين سنية ، كما نجد في إقليم أفريقية كله ، أو خارجية إباضية ، كما رأينا في تجربة بنى رستم في تاهرت ، أو إباضية صفرية كما رأينا في دولة آل مدرار في سجلماسة ، أو خارجية دون تحديد مذهب ، كما كان الأمر مع دولة أبي قررة المغيلي الخارجي في نواحي تلمسان ، أو سنية

قامت تحت راية نفر من آل البيت ، أو دويلات قبلية ذات مذاهب بعيدة عن الإسلام كما رأينا في زندقة برغواطة .

وكل هذه كانت تجارب مغربية ، إما خالصة ، أو مغربية عربية اشترك فيها العرب والبربر كما رأينا في محاولة عبد الرحمن بن حبيب وآله ، وتجربة المهالبة ودولة الأغالبة . كل هذه التجارب ، ما نجح منها وما لم ينجح ، وما طال عمره أم لم يَطُلْ ، وما كان عربياً أو بربرياً ، كانت تجارب ذات صلة بأوضاع المغرب ، أى أنها كانت في نهاية الأمر تجارب مغربية ، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذى خاضه المغرب لكى يكتشف ذاته في النهاية ويتم إسلامه واستعرابه ، ويصبح جزءاً من ذلك العالم العربى الشاسع ، تقوم فيه الدول المغربية العربية التى تحمل جانبها من المسئولية عن الإسلام ، ومصيره في بلادها وخارجها ، حملاً كاملاً كما سنرى في دول المرابطين والموحدين والمرينيين ومن عاصرهم وجاء بعدهم إلى يومنا هذا .

ولكن التجربة التى سنوجز الكلام عنها في الصفحات التالية ، وهى تجربة الدولة الفاطمية وقيامها في المغرب ، كانت تجربة غربية عن المسار العام للتاريخ المغربى ، أو قل هى شجرة غربية زرعت في أرض المغرب ونمت وارتفعت فروعها في الهواء حيناً ، ولكنها لم تضرب جذوراً ، ولا أضافت إلى طوائف التجارب السياسية في المغرب شيئاً نابعاً من تربة تلك البلاد ، إنما هى كانت بذرة عقيمة مشرقية غربية عن بلاد المغرب ، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب ، فكان لها فيه شأن ، ثم مضت مخلفة وراءها قلقاً شديداً ودماراً بعيد المدى ، ولكن وراثتها وهم صنهاجة المغرب الأوسط من آل زيرى بن مناد عرفوا كيف ينشئون على القليل الذى ورثوه عن الفاطميين ، بناء مغربياً عربياً أصيلاً ، يتمثل في دولتى بنى زيرى الصنهاجيين الذين سنُلِمُّ بتاريخهم في الفصل التالى . والقليل من العلم بشئون السياسة والدول الذى ورثه آل زيرى عن الفاطميين كان غير قويم أو كاف عن إنشاء الدولة وكيف يكون ، ولكن الفاطميين خلفوا لهم أساساً عربياً سليماً كان بعيد الأثر في تعريب المغرب ، لأن بنى عبيد الله أياً كان رأى في نسبهم كانوا عرباً أقاموا في أفريقية بناء سياسياً ، وكانت فيهم رغم كل

شيء فحولة عربية أصيلة ، وتلك — فحسب — هي أكبر ما ورث المغرب الإسلامي من تجربة الفاطميين . ثم إنهم — أي الفاطميين — عندما أرادوا إرغام بنى زيرى على العودة إلى الطاعة قذفوا على المغرب بآل هلال وآل سليم بن منصور ، فآثروا في المغرب أعاصير مدمرة . ولكن الأعاصير عندما هدأت ، كانت قد نثرت في المغرب كله بذوراً عربية أصيلة ، كان لها أثر حاسم في تكوين المغرب الإسلامي العربى .

وقد كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطان في المشرق ، لأن بنى العباس ، الذين دخلوا التاريخ دخولاً ضخماً ذا دوى بعيد ، معلنين مجيء دولة العروبة والإسلام التى تقيم دولة العدالة والسنة إلى آخر الزمان ، لم تلبث على حال من القوة إلا قرناً واحداً من الزمان ، ثم انتابتها العلل والفتن والأزمات ، لأنها انحرفت بأصول الحكم الإسلامى ، التى تقوم على الشورى والعدالة والحرية وكرامة الانسان ، وارتدت إلى قواعد الحكم الساسانى ، واستلهموا عهد أردشير بن بابك فى أصول الحكم وغايته . وانتهى الأمر إلى وضع السلطان فى يد الثالث المدمر الذى قضى على آل ساسان : ثالث السلطان أو كسرى فى ثوب الخليفة ، والوزير المدير لكل شيء باسم السلطان ، ثم القوة العسكرية المأجورة بالمال . وفى أثناء صراع الأمين والمأمون تخلى آل العباس عن قاعدة العروبة إلا بالاسم ، فصاروا خلفاء عرباً يسوسهم أجلاف عجم . وعندما اكتشف العجم أنهم صولجان الملك وقوته ، نحوا الخليفة جانباً . وحكموا باسمه واضطرب الأمر فى عالم الدولة العباسية كله ، وأصبحت وظيفة الإدارة العباسية هى جمع المال لإعطاء الجند التركى فى الغالب . وشيئاً فشيئاً ، وخاصة بعد خلافة المنقصر بالله بن المتوكل على الله (شوال ٢٤٧ — ربيع الآخر ٢٤٨ / ٨٦١ — ٨٦٢ م) ، صار الوزير جابياً للمال أو ملتزماً بالجباية لقائد الجند المرتزق ، وتحول العمال ، حكام الولايات ، إلى ملتزمين يجمعون الأموال ويختصون أنفسهم وسادتهم منها بنصيب وافر ، ويبعثون بالبقية إلى الوزير . وتحول الخليفة العباسى إلى موظف فى خدمة رئيس الجند وإن حمل لقب الخلافة ، فهو يتقاضى راتباً يُعِينه له الجند الأتراك ويأتمر بأمرهم .

وفي أثناء ذلك ضاعت الرعية ، فلم يُعَدُّ أحد يُعْنَى بأمرها ، وأهملت المرافق واستولى الخراب على كبار المدن ، وأصبحت بغداد نفسها بلداً مخوفاً يعيش الناس فيه على وجل ، ولا أمل لهم في صلاح ، أو خير من جانب خلفاء بنى العباس ورجالهم .

واتجه الناس بآمالهم يبحثون عن الحاكم الصالح العادل ، لأن الإسلام دين صلاح وعدل وإنسانية ، ولا ييأس المؤمن قط من عدل الله سبحانه ، مهما ساء أمر الحاكم ، وتجسدت الآمال في العدالة في صورة العلويين أى سلالته على بن أبى طالب الذين لقوا من القتل والتشريد على أيدي بنى العباس مثلما لقوا على أيدي الأمويين . وكان العلويون منذ أيام إمامهم العظيم جعفر الصادق بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهو خامس أئمتهم ، إذا أضفنا إلى أولاد على بن الحسين ، ابنه الحسن ، وهو الإمام الثانى فى سلسلة أئمة آل البيت ، ومنه انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين فعلى زين العابدين فجعفر الصادق ، نقول : إن تفكيرهم اتجه من أيام جعفر الصادق هذا إلى أن يباعدوا السياسة ولا يطلبوا الحكم بسبب ما لقي رجالهم من الأذى فى سبيله .

ولقد ظل جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ملتزماً سمى العلم والعلماء ما عاش ، بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال وزير آل محمد وواحد من أكابر مؤسسى الدولة العباسية ، ولكن شيعة على وآله ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت ، وإذا كان جعفر الصادق قد رفض أن يكون خليفة ، إلا أنه ظل يرى نفسه إماماً فى العلم والفضل ، ووارثاً لعلم جده على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان أنصار آل البيت يرون أن إمامة آل البيت لا تقتصر على العلم بل تشمل السياسة ، فهم أئمة المسلمين وأولى الناس بالحكم ، وإذا كان جعفر الصادق قد ترك السياسة فقد كان ذلك فى رأيهم تقيية أى تقى وورعاً أو اتقاء لأذى العباسيين ، وقالوا إن جعفرأ قرر أن التقيية مذهبه ومذهب الأئمة أجمعين .

وفى حياة جعفر الصادق حدث ما جعله ينقل الإمامة من بعده من ولده إسماعيل إلى ولده موسى الكاظم ، ولم يوافق نفر غفير من شيعة آل البيت على

هذا النقل ، لانهم قالوا إن الإمامة سر أودعه الله في آل البيت ، وهي تنتقل من الإمام إلى ابنه الأكبر وراثه حتمية . فظلوا متعلقين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقالوا إن إسماعيل هو الإمام المستقر ، وأن موسى الكاظم أخاه إمام مستودع ، أى أن أباه استودعه الإمامة إلى أن تعود فتستقر في إسماعيل وأولاده ، أما موسى الكاظم وأبناؤه فهم الأئمة السبعة ، لأن موسى الكاظم عندهم هو الإمام السادس ، ثم جاء بعده ابنه الذى استتر ، ولا زالوا في انتظاره إلى اليوم .

وأما أتباع إسماعيل بن جعفر ، فقد جعلوا فيه الإمامة . ونقلوها من بعده إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى أبناء هذا ، إلى الإمام الثانى عشر الذى استتر خوفاً على نفسه من الأذى ، وسيعود إلى الدنيا عندما يشاء الله ليملوها عدلاً عندما يصل الفساد مداه ويشاء الله سبحانه إنقاذ الخلق ، وهو عندهم المهدي المنتظر .

وقد لقيت حكاية استتار الإمام إقبالاً من نفر غفير من أبناء الأمة ، لأن الإنسان إذا يئس من الواقع لجأ إلى الأمل ، وكان العلويون أملاً ضخماً تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسية عن إقامة الحكم الصالح الذى بشر به الإسلام .

وفي خدمة الإمام المستتر قام الدعاة يبيثون الدعوة في الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذى ثقل على القلوب . والدعاة جماعة من أهل الإيمان بإمامة على وأبنائه أو من أهل الطموح السياسى والمالى الذين وجدوا في عطش الجماهير إلى العدالة والأمن فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الأنصار ، ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم من أصحاب الآراء الغريبة عن الإسلام ، فنشأت فرق الشيعة الكثيرة التى فصل أمرها النوبختى ، والذى يعيننا الآن هم الشيعة الإسماعيلية أو الاثنى عشرية ، والفاطميون منهم .

وقد نظم الدعاة أنفسهم على نحو يدعو إلى الغرابة ، فقالوا إن الإمام مستتر في مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصى ، وهذا الوصى أو وصى الإمام هو مدير الدعوة ومنظمها ، وتحسنت يده داعى الدعاة ثم الدعاة ، وهم مراتب . وأخذ الموضوع صورة مؤامرة سرية كبرى هدفها نقل الخلافة من بنى العباس إلى آل على .

وقالوا: إن الإمام كان أول الأمر مستتراً في فارس، ثم انتقل إلى سلمية قرب حماة، وهي عندهم مركز الدعوة. والإمام فيها حصين آمن له حرس وعيون وأرصاد في قصر الخليفة وبيوت رجال الدولة، وهم يجمعون باسمه مالا كثيراً من الناس، لأن الواحد من الناس إذا آمن بدعوتهم، أصبح لزاماً عليه أن يؤدي الزكاة للإمام، ومهما قل مبلغها، فقد كان يتحصل منه في أيدي الدعاة، من صغيرهم إلى الوصى، مال جسيم ليصل بعضه إلى الإمام المستتر، فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية، ولقد قيل إن الإمام المهدي الذي سيكون أول الخلفاء في المغرب، كان يملك أموالاً جساماً، جعلها في سرايب تحت الأرض.

المسألة إذن في أمر الدعوة والدعاة كانت مسألة فيها مخاطرة ولا شك، ولكن كان فيها كسب ومال كثير، ثم إن قلوب الناس كانت مع آل علي، ولهذا كان الناس يتسترون على الدعاة والشيعية، ومن لم يردعه تقاه عن إفشاء سر العلويين، يردعه المال وكان وفيراً في أيدي الدعاة. وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً، ازدادت دعوة آل البيت قوة، حتى أصبح عالم الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شبكة سرية واسعة، نشأ عنها ما سماه بعض المؤرخين بأكبر مؤامرة في التاريخ.

ففي بدايات القرن الرابع / العاشر الميلادي كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة موجاً، وكان أولئك الرجال يجتهدون في إشاعة الخوف والقلق في النفوس حتى تتعلق الآمال بهم وبما يدعون، ولكنهم كانوا تنظيمًا سريعاً فقط واسع النطاق دون أن يملك قوة عسكرية تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيان سياسي. وكانت الدولة العباسية رغم ضعفها تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحطم أي حركة مسلحة في أي ولاية محددة من ولايات الدولة مثل مصر والشام والعراق وخراسان، ولهذا اتجهت أنظار رياسة التنظيم الشيعي إلى البحث عن بلد بعيد عن متناول الدولة وعن المسالك والمداخل، تستطيع أن تنمو في داخله، وكانت أبصارهم تتجه إلى اليمن. ولكن بلاد اليمن لم تكن تضم إلا شرطين من الشروط اللازمة لإحداث ذلك التحول وهما وعورة الأرض وصعوبة المسالك، مع

البعد الشاسع عن قلب الدولة ، أما الرجال فقد كانت بلاد اليمن حافلة بهم ، ولكنهم كانوا مفرقين شيعاً وأحزاباً وعصائب متعادية ، وقلما اجتمعت قواعد اليمن الكبرى وهى صعدة وصنعاء وتعز وزبيد وجند على رأى واحد ، لا فى السياسة ولا فى غيرها .

ولكن رجال الدعوة وجدوا فى اليمن على أى حال مهدياً آمناً يمكن أن يرتكز عليه التنظيم فى البحث عن الرجال الذين يؤلفون القوة العسكرية .

وفى أوائل القرن الرابع صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى شهر بن حوشب استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى دندان ، فاستقر شهر ابن حوشب فى اليمن . واتخذ بلدة تسمى عدن « لاعة » لتكون مركزاً لأعماله ، وهده تفكيره إلى أن القوة التى يبيح عنها من الرجال يمكن أن توجد فى المغرب مما يلى أملاك الدولة العباسية غربى نهر شلف ، فهناك وحتى المحيط لا سلطان للدولة العباسية ، وهناك شعوب من البربر تمكنت بفضل قادة من العرب من إقامة دول مثل الدولة الإدريسية والدولة الرستمية فاختر داعيين ذكيين يسميان سفيان والطلوانى وبعث بهما إلى هناك ، فاستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكتامة ، وهو حلف قوى يسكن المناطق الجبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب ، فلا يفصل منازلهم عن بلاد بنى الأغلب إلا مجرى نهر شلف .

هذان الرجلان حرثا الأرض بمصطلح الدعوة ، أى أعدا النفوس لقبول فكرة الدخول فى الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت . وكان الكتاميون قبيلاً ضخماً من البربر البرانس يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوباً فى جبال الأوراس ، وكانوا قومياً فيهم عدد وقوة وإيمان وتطلع إلى السلطان ، وكانما حفزهم على ذلك ما تمكن من إنشائه جيرانهم فى المغرب الأوسط من دولة بنى رستم ، وما استطاع إنشائه فى المغرب الأقصى آل إدريس من دولة قوية غزت بها أوربا وسادت المغرب الأقصى .

ولم يتيسر الأمر لسفيان والطلوانى لأكثر من الحرث ، واحتاج الأمر إلى

صاحب بذر - بمصطلح الدعوة - أى رجل ينثر البذور فى الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع ، أى رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة .

أبو عبد الله الشيعى :

ووقع اختيار شهر بن حوشب على الرجل المطلوب ، وكان بالفعل رجل الموقف والساعة ، ويسمى أبا عبد الله الداعى ، وليس هذا باسمه ، وإنما هو كنية أو تكنية أو اسم حركى كما يقال ، فما معنى أن يقال إن اسمه أبو عبد الله فحسب ، أما بقية الاسم وهو الشيعى أو الداعى فصفة ، ولكن الرجل كان له أخ يسمى أبا العباس المخطوم ، وهذا أيضا ليس باسم .

على أى حال كان أبو عبد الله الشيعى رجلاً موهوباً فى أكثر من مجال ، فكان ذكياً بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحيلة ضليعاً فى الفقه الشيعى وغير الشيعى ، وعندما عهد إليه فى المهمة ترك له أمر التصرف فى تنفيذها كما تقول المراجع ، ولكننا نشك فى الرواية التقليدية التى تقص عن لقائه لرجال كتامة واحتياله عليهم فى موسم الحج ، والأرجح أن ذلك اللقاء كان على تدبير ، ولكننا لا نملك براهين تؤيد الشك ، ليس أمامنا إلا أن نتبع الدرب المطروق حتى نتكشف لنا الحقائق .

والقصة التقليدية ، التى يرويها القاضى الشيعى أبو حنيفة النعمان بن محمد داعى الدعوة فى كتابه الممتع المسمى « ابتداء الدعوة » ، تقول إن هذا الرجل اتجه إلى الحجاز فى موسم الحج ، وهناك أخذ يتقرى ويستقصى حتى وقع على وفد حجاج كتامة ، فجلس إلى جوارهم وأذنه صاغية إلى ما يجرى بينهم من حديث ، وهذا أول ما يشكك فى القصة ، لأن هؤلاء القوم إذا كانوا يتجادبون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك إلا بلغتهم ولهجتهم . والمفروض أن أبا عبد الله الشيعى لا يفهم منها شيئاً ، ولكن القاضى النعمان يريدنا أن نصدق روايته التى يرويها فى أسلوب أخذ ولغة عربية سليمة ، يمكن أن تكون من أجمل أساليب النشر فى العصور الوسطى ، فىقول : إن أبا عبد الله الشيعى لم يزل ملازماً جوار القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث ، ثم تدخل فيه وأخذ يحدثهم عن آل البيت وأمور الفقه حديثاً يدل على علم وتضلع ، وصار يلقاهم فى

كل يوم فيلقى فيهم علمه حتى بهرهم واجتذب قلوبهم ، وكان يظهر مع ذلك عفافاً وورعاً وقناعة وديناً وتعاوناً ، مما زاد الناس فيه محبة .

وعندما توثقت الأسباب بينه وبينهم واقترب موعد الرحيل ، قال لهم إن وجهته مصر ليبحث فيها عن وظيفة معلم ، فهذه فيما زعم صناعته ، ففرحوا بذلك لأنه يتيح لهم فرصة ملازمته والاقتراب من علمه ، فأخذوه في ركبهم .

وعلى الطريق جرى الحديث هوناً بين أبي عبد الله وأولئك الناس ، وكانوا من خيرة شيوخ قبائل كتامة الكثيرة ، فعرف الكثير عن أمورهم ، وهم لا يعرفون إلا أنه مؤدب فقير يلتمس العيش ، وكان يلقي عليهم السؤال تلو السؤال في ذكاء وبراعة فيلقون إليه بما في نفوسهم في توسع وسذاجة .

وعندما أدركوا مصر ، ودخلوا الفسطاط مضى في زعمه يبحث عن عمل فلم يجد ، فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم فهم في حاجة إلى معلم ، فقبل ومضى معهم إلى بلادهم وهم جد فرحون .

وكان أبو عبد الله قد عرف أين سينزل وكيف سيعمل ، وذلك لكثرة ما حصله من العلم بشئون أولئك الناس . وعندما اقتربوا من موطنهم وصاروا على بلد صغير يسمى « ايكجان » في وعر من الجبل ، عرف أن هذه منازل « سكتاتة » من بطون كتامة ، وعندما مر بفج قريب من ايكجان قال هذا هو فج الأخيار ، وأوهمهم أنهم هم الأخيار ، والفج ممر طويل في الجبل ، وكان اسم هذا الفج بالبربرية قريباً من لفظ « فج الأخيار » ، فدهش الناس من معرفة أبي عبد الله بذلك ، ثم قال لهم إن اسمهم كتامة ، وهو مشتق من الكتمان ، والكتمان أول شروط الدخول في الدعوة ، فأعجبهم ذلك مع أن اسم كتامة قديم وجدناه في سجلات الرومان .

واستقر أبو عبد الله الشيعي في بلدة ايكجان في منازل قبيلة سكتاتة من قبائل كتامة ، ونهج في حياته نهج المعلم الصالح ، فسلك مسلك الطهر والعفاف والديانة ، وأخذ يعلم الناس حقاً حتى اشتهر أمره بالصلاح والعدالة ، فإذا استوثق من مكانته على هذه الصورة أخذ يتحول مرشداً لهؤلاء القوم على طريقة المعلمين الدينيين الذين يتحولون إلى قادة سياسيين ، وهو أمر تكرر حدوثه في

المغرب، فما كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري غير شيخ صالح من شيوخ الإباضية ، ثم صار إلى الرياسة السياسية ، وكذلك سيفعل عبد الله بن ياسين في قبائل صنهاجة الصحراء ومحمد بن تومرت في قبائل مسمودة . هنا أيضاً نجد أبا عبد الله الشيعي يمهّد بالسلوك الحسن والقيام بمطالب التوجيه الديني ، وشيئاً فشيئاً نجد هذا الرجل يتحول إلى شيخ قبيلة سكتاتة ، ويصلح أمر القبيلة على يده وينشط رجالها في مغاورة حدود الأغالبة ، وشكا عمال بلاد الزاب الشرقي من عدوان السكتاتيين عليهم ، وسعى رجال الأغالبة في نصح بقية الكتامين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعي من بلادهم ، ورفض السكتاتيون إخراجهم ولكنه خاف على نفسه ، لأن سكتاتة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية قبائل كتامة من أمثال لهيصة ومسالطة . وكان قد أنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار ، ورفع لنفسه جاهاً بالتقى والصلاح والعدالة وسعة العلم ، وقد نجح في إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبي ومنأهم بأن يورثهم الله بلاد الأغالبة إذا هم صدقوا في تأييده ، وكان هذا أيضاً مما أثار حفيظة بعض القبائل الكتامية ، لأن هذا الأمر إذا تم فلماذا تنفرد به سكتاتة .

الهجرة إلى تازروت وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية :

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعي أمره وانتقل إلى قاعدة وسط جبال الأوراس وعند مداخلها من الشمال تسمى « تازروت » . ولم يكف يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار ، فسارع إلى تحصين بلده ، وفرض على أتباعه جباية قليلة هي أشبه بالتبرع للحركة ، وبلغ من ذكائه أنه جعل هذا المال بأيدي شيوخ من كتامة فلا يتصرف هو في شيء منه إلا بإذنهم . وبإيمان الناس به ، وبما كان يمنيهم به من إقامة دولة صالحة عادلة يكونون هم ساداتها ، استولى على بلاد الأغالبة . وبهذا المال أيضاً بدأ سلسلة من الحملات على ما قرب من منازل كتامة من بلاد الزاب ، ووفق في حملاته الأولى وغنيت أيدي الكتامين بالغنائم فاشتد حماسهم ، وكان هذا في أواسط أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي .

وهنا تحول أبو عبد الله الشيعي إلى قائد سياسي عسكري ، وكشف عن

وجهه فصارح الناس بأنه يدعو للرضا من آل البيت ، وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل رسول الله ﷺ وهو الإمام المستتر صاحب الزمان ، وأظهر هذا الرجل من الكفاية والحزامة والجرأة ما مكن له فعلاً من جمع قياد أولئك القبائليين العفاة ، واستطاع في زمن وجيز أن يستولى على بلاد الزاب كلها ، ثم دخلت قواته بلاد أفريقية ، وهنا تزعزع بنيان بنى الأغلبي ، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذي كان في حكم إبراهيم بن أحمد الأغلبي ثم ابنه أبي العباس ثم أبي مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه ، وهو آخر الأغالبة ، وكان قد ارتكب أخطاء جسيمة في حق أهل أفريقية فمال الناس إلى دعوة الشيعي . وفي أوائل جمادى الأولى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م سقطت الأربس في يد أبي عبد الله الشيعي ، والأربس هي مفتاح القيروان ، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان ، وأعلن قيام الدولة الفاطمية وبعث يستدعي الإمام المستتر في سَلْمِيَّة وهو عبيد الله المهدي .

وقد سار أبو عبد الله الشيعي في أهل القيروان وبقية أهل أفريقية سيرة طيبة ، وحرص على ألا يصارح الناس بالدعوة الشيعية ، وأراد أن يتم ذلك عن طريق الإقناع ، ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكي وخاصة أبي عثمان سعيد بن الحداد وأبي عبد الله الشيعي ودعاة المذهب ، وفي أثناء المناقشات تبين أبو عبد الله أن قناة أولئك المالكيين لن تلين وأن الناس لهم تبع ، فعول على الانصراف عن الدعوة النشيطة حتى يستتب الأمر للدولة الجديدة . وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبي العباس المخطوم ، وكان عامل القيروان ، عندما لجأ إلى العنف مع بعض مناوئي الدعوة . وقد نجح أبو عبد الله الشيعي في زمن قصير في تثبيت أقدام الدولة وتنظيم أمورها ، وفي هذا الدور كان اعتماده على كبار أنصار الدعوة من الكتاميين وخاصة غزوية بن يوسف وأخيه .

قدوم عبيد الله المهدي :

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه الدرجة من النجاح أرسل أبو عبد الله الشيعي يستدعي عبيد الله المهدي صاحب الزمان ، وتلك كانت خطيئة حياته ، فقد كان مستطيعاً أن يمضى في رياسة الدعوة تحت اسم الوصاية حيناً ثم يحوزها

لنفسه ، ولكن الحذر يؤتى من مأمنه ، وما كاد الخبر يصل إلى عبيد الله المهدي في سَلْمِيَّةَ حتى أعد العدة للرحيل ، وكان يعيش في تلك القرية في سعة من العيش ، وكان يعتز إلى حد ما بالقرامطة ، وهم فريق من دعاة الشيعة تزعمهم رجل يسمى أبو سعيد الجنابي ، يزعم بعض أعداء الدولة أنه والد عبيد الله المهدي ، ثم تولى رئاسة هذا الجناح من الدعاة والشيعة رجل نشيط ولكنه جاهل بشئون السياسة يسمى حمدان قرمط ، حسب أنه يستطيع التحصن في إقليم الحسا في شرقي الجزيرة العربية ، وانضم إليه عدد غفير من البدو واللصوص ، فصارت له قوة عسكرية مرهوبة أغار بها على البصرة وجنوب الحجاز أكثر من مرة ، وروع جنوبى الشام والحجاز ، وبلغ من جرأته أن رجاله اختطفوا الحجر الأسود من الكعبة ، واحتجزوه في بلادهم حتى ردوه بتوسط العزيز بالله ثالث الخلفاء الفاطميين . وفي هذا الدور من الحركة العلوية كان القرامطة ودعاة الفاطمية أحلافاً يتآزرون على الدولة العباسية .

ووصل عبيد الله المهدي إلى مصر في ركب من أتباعه وأحمال من أمواله ، وقد عرف كيف يستخدم هذه الأموال في تيسير سفره ، وبعد خروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمعاونة عامل مصر فيما يقال ، ولكنه بعد أن وصل برقة ، أحس أن رجال بنى العباس علموا بأمره ، فاستعمل الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مآلاً للمشرفين على الركب فحولوا اتجاهه إلى سجلماسة ، فنجأ من أيدي العباسيين ، ولكن صاحب سجلماسة من بنى اليسع بن مدرار ، تخوف من أمره بعد استقراره في بلده ، فسجنه .

وهنا تواجهنا علامة استفهام كبيرة ، إذ ما الذى يدعو رجلاً خارجياً صغرياً هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء العباسيين وهو منهم ؟ ثم إن سجن عبيد الله وولده أبى القاسم محمد الملقب بالقائم لم يكن ، فيما يحدثنا القاضى أبو حنيفة النعمان داعى الدعاة ، لم يكن سجناً على الحقيقة . إنما كان تحفظاً أو تحوطاً .

وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعى فجمع جيشاً ضخماً وخرج به من القيروان في سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠ م ووجهته سجلماسة ، ووصلها وتمكن من تخليص

عبيد الله المهدي والقضاء على صاحب سجماسة ، ويبدو حقاً أن أبا عبد الله الشيعي ، وكان داعياً للدعاة وصاحب الفضل في إقامة الدولة لم يكن يعرف عبيد الله المهدي معرفة شخصية ، ولا هو رآه من قبل ، حتى لقد أخطأ في شخصه وتقدم بطاعته إلى رجل آخر ، ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبيد الله ثم ابنه ، وهنا لا بد أن نلاحظ أن الكثيرين من مؤرخي الدعوة الفاطمية يقولون إن الخليفة الفاطمي الحقيقي كان أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، وأن هذا الأخير ، كان مههداً له وراعياً لأمره ، وربما لم يكن أباه أصلاً ، ولكن هذه كلها أقوال . وكل ما يتصل بنسب الفاطميين موضع شك كبير ، فأهل السنة ينكرونه إنكاراً تاماً ، والمسرفون في الحملة عليهم يقولون إن عبيد الله المهدي ابن لرجل يسمى « القداح » يصفونه بأنه يهودي ، وهناك من يقولون : إنه من ولد أبي سعيد الجنابي ، ولكننا في الحدود التي نكتب في نطاقها لا بد أن نسلم بصحة نسب الفاطميين إذ لم يقم لدينا دليل على خلاف ذلك .

وبويع عبيد الله المهدي بيعة عامة في سجماسة ، وسلم إليه أبو عبد الله الشيعي الأمر وسار بين يديه يحترمه ، وفي طريق العودة من الجيش بتاهرت وأزال إمامة الرستميين ، وكان ذلك سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءاً من الدولة الفاطمية ، التي قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، ولا ندري كيف نشأت تسمية هذه الدولة بالفاطمية ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يرون أنفسهم أبناء علي وفاطمة من ولد الحسين .

خلافة عبيد الله المهدي : ربيع الآخر ٢٩٧ – ربيع الأول ٣٢٢ هـ / ٩١٠ – ٩٣٤ م :

بويع عبيد الله المهدي بيعة عامة في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ ، وبذلك انتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات من ٢٨٨ إلى ٢٩٧ ، فقد أصبح وزيراً وخادماً لهذا السيد الذي استقدمه من سلمية ، ولأول ولاية عبيد الله المهدي فعل فعلة شككت الكتامين في أصالته ومستوى تفكيره ، فقد استولى على الأموال التي جمعوها وحرسوها في ايكجان ، وأخذها دون أن يستشير أو يكثرث لرأي أحد ، فبدأت نفوس كبار الكتامين تتغير ويساورها الشك ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعي شاركهم في ذلك ولم يخف استيائه . وإذا

كان أبو عبد الله الداعي قد تمكن من ضبط مشاعره ولسانه ، فإن أخاه أبا العباس المخطوم لم يستطع . ولم يلبث الجو أن أظلم بين عبيد الله وأبي عبد الله وأخيه ، فلجأ عبيد الله إلى الغدر ، واستعان برجل من كبار الكتاميين هو غزوية بن يوسف في قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، وتلك كانت سلسلة من الاغتيالات والغدرات درج عليها خلفاء الفاطميين في المغرب خاصة ، وهي سياسة لم تعد على البيت الفاطمي بشيء .

بناء المهديّة :

وأحس عبيد الله المهدي أن الناس في أفريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادئ الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعواتهم ومفكرهم أثناء فترة الاستتار ، ودخلت فيها آراء غريبة كل الغرابة عن صفاء مذهب السنة والجماعة ، ويتجلى ذلك في تفاصيل المذهب الإسماعيلي كما شرحه الدعاة من أمثال القاضي النعمان بن محمد ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أسماءهم بهالات من التقديس والتعظيم ، لم يعرفها أهل أفريقية إلى ذلك الحين ، حتى كانوا يتحدثون إليهم وكأنهم من طينة غير طينة البشر ، فعندهم أسرار الغيب وعلم ما سيكون ، ولديهم كتب يقولون إن فيها كل ما حدث ويحدث ، مسطور برموز لا يفهمها غيرهم ، ثم إن سياسة عبيد الله المهدي المالية كانت سياسة جشع بغير حدود ، فهو يجمع المال من الجبايات ورجاله يتاجرون له ولأفراد بيته ، وكلهم يجمعون الأموال بالحق والباطل .

وكانت في أهل أفريقية كما عرفناهم إلى الآن صراحة وجرأة ، فجابهوا عبيد الله ورجاله بما يرون ، فأحس الرجل أنه ليس بين رعية وإنما تجاه خصوم ، وأنه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس قط . ولم يكن كذلك يستطيع الثقة المطلقة بالكتاميين بعد الذي فعل بأموالهم وبأبي عبد الله الشيعي الذي كانوا ميالين إليه . ثم إنه لم يلبث أن دبر مقتل غزوية بن يوسف ، وتطلع إلى الاستعانة بغيرهم . فرأى أن يشيد لنفسه وأسرته قلعة يعتصم فيها هو وآله وجنده وحشمه وأمواله ، فأشبهه في ذلك ما فعله إبراهيم بن الأغلب عندما بنى القصر القديم . وأمثال هذه القلاع الملوكية تؤمن رجال البيوت المالكة ولكنها تعزلهم عن الناس وتحول بين

بيوتهم وبين أن تضرب جذوراً في البلاد ، وتعجل بزوالهم من البلاد ، وهذا هو الذي كان بالنسبة للفاطميين في المغرب . وكان بناء المهدي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، وما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وهى حصن منيع يقوم على رأس بارز في الساحل الشرقى لتونس شمال سوسة ، « كأنه الكف » كما يقول المؤرخون ، ولا يوصل إليه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق . وهو محاط بسور منيع على الذرى مستدير الزوايا ، وبين السور والبحر قطعة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية ، وهذه أيضاً محصنة لا يوصل إليها بسهولة . وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد ، في موضع يسمى زويلة ، فلا يكونون في البلد إلا نهاراً ، فإذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الأسوار . وقد بلغ من حرص عبيد الله على تأمين مدينته تلك ، أن رسم لجنده أن يقبضوا على أهل أولئك العمال في قريتهم إذا هم أحدثوا في المدينة شغباً ، فكانوا بذلك مضطرين إلى السكون والطاعة . وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها بأمواله وآله وجنده وحشمه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » ، أى أنه أمن على نفسه وماله وأمواله . ومضى يدير البلاد من معتمه هذا .

وكانت ثقة عبيد الله المهدي كلها في جنده المرتزق الذى استكثر منه واعتز به . واستكثر لذلك من الصقالبة والخصيان للخدمة في القصر . وقد خلف لنا اثنان من صقالبة الفاطميين في المغرب ، وهما منصور العريزي والأسناذ جونر ، مذكرات هى الغاية في القيمة التاريخية ، فهى ترينا حياة الفاطميين الخاصة خلال الفترة المغربية ، ولم تكن بحياة سعيدة ولا نافعة للناس ، وإنما كان كل هم خلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التى صارت إليهم على أسوأ صورة . ومن هنا فقد كانت صورة المهدي عند عامة أهل أفريقية بغیضة بشعة تصورها رواية شعبية ذكرها ابن عذارى ، وهى تصور عذاب عبيد الله المهدي في أخريات أيامه ، ثم عذابه في الآخرة .

وبعد مقتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه غدر المهدي بغزوية بن يوسف كما قدمنا ، وتخوف من الكتامين جملة ورمى ببصره إلى قبائل أخرى مجاورة كانت

تحسد الكتاميين ، وأهم هذه صنهاجة المغرب الأوسط وكان يتزعمهم مصالة ابن حبوس ، فأغراه بالمال وسلطه على المغرب وبعثه في جيش كبير يغزو المغربين الأوسط والأقصى ، فأما في المغرب الأوسط فقد ملك الرعب جماعات الزناتية التي كانت تسكن بعض نواحيه ، وعلى رأسهم علي بن حمدون الزناتي ، الذي فزع إلى الأمويين في الأندلس واستجار بهم ، وبنو خزر المغراويين الذين اندفعوا نحو الأمويين أيضاً . ووصلت جيوش مصالة بن حبوس إلى المغرب الأقصى ودخلت فاس أيام يحيى بن يحيى بن عمر بن ابن إدريس الثاني . وقد ولي مصالة على منطقة فاس رجلاً من أقاربه يسمى موسى بن أبي العافية ، ولكنه أذن للأدارسة بالبقاء في فاس تحت الطاعة الفاطمية ، فلم يزل موسى بن أبي العافية يتحيل حتى أضافوا إليه فاساً ، فنفي من كان فيها من بقايا الأدارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب في جبال الريف قرب مدينة تسمى بصرة المغرب ، فتجمع بقايا الأدارسة هناك ، وارتبطوا بالناس وداخلوهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية ، وتلك هي بداية الدور الثاني من تاريخ الأدارسة .

حكم عبيد الله المهدي خمساً وعشرين سنة هجرية (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م) ثبت أثناءها قواعد بيته في أفريقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وجمع مالاً وافراً ، وكان في حكمه بعيداً جداً عما كان الناس يتصورونه عن المهدي الذي يعيد العدل إلى الأرض ، وقد أبغضه وأنكر أساليبه فقهاء المالكية وهم رؤساء الناس في أفريقية ، وأحس هو بكرهاتهم له ، فرسم أن يخففوا من نشاط الدعوى للمبادئ الشيعية ، ولكن ذلك لم يُفد كثيراً ، فلم تكسب الدعوة الفاطمية في المغرب إلا نفرأ من شواذ الناس وضعفة الفقهاء ، وذلك كله حفز المهدي على التفكير في غزو بلد آخر والاستيلاء عليه والانتقال إليه بأهله وماله وجنده ، وهذا هو السبب الذي جعله يحاول الاستيلاء على مصر . فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه القائم ، استولت على الإسكندرية وخربت بعض نواحيها ، وناوشت بعض نواحي الصعيد الأدنى عند الجيزة ولم تعد بنتيجة .

وقد خلف المهدي بعد موته ، ثلاثة من خلفاء الفاطميين هم :

القائم ، أبو القاسم محمد (١٤ ربيع الأول ٣٢٢ — ١٣ شوال ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م) .

المنصور ، أبو الطاهر إسماعيل (١٣ شوال ٣٣٤ - ٢٩ شوال ٣٤١ هـ /
٩٤٦-٩٥٣ م) .

المعز ، أبو تميم معد وقد حكم في المغرب من مستهل ذي القعدة
٣٤١ هـ / ٩٥٣ م حتى انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م وتوفي فيها في ربيع
الآخر سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م .

فأما القائم فكان أقرب إلى العدل وحسن السياسة من أبيه . وقد ازداد
شعوره بالعزلة والغربة في المغرب وأراد التقرب من الناس دون جدوى ، فركز
جهوده على مغازاة المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لفتاه « ميسور » وقائع
طويلة مع جند الأمويين والادارسة في المغرب الأقصى ، مما اضطر عبد الرحمن
الناصر إلى احتلال سبتة ومليلة لتأمين بلاده من أنصار الفاطميين ، من أمثال
بلكين بن زيري بن مناد ، وهو زعيم صنهاجى استماله الفاطميون فأخلص في
خدمتهم . أما بقية أهل المغرب الأقصى من رجال دويلة نكور وبنى خزر
الزناتيين وبنى خزرون الزناتيين أيضاً ، فقد استجاشوا بالأمويين الأندلسيين
الذين لم يدخروا جهداً ولا مالاً في مناجزة الفاطميين وإبعادهم عن المغرب ،
فاتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر ، إذ تصوروا أن الإخشيديين ضعاف لا
يستطيعون مقاومة الضغط الفاطمى طويلاً ، وكان يتولى أمور مصر كافور
الإخشيدى وكان رجلاً صبوراً مطاولاً ، يصانع الفاطميين حيناً ويناجزهم حيناً
آخر ، لأنه كان يرى أن الدولة العباسية - وهو تابعها - أعجز من أن تمدد بعون .
وقد أرسل القائم حملة إلى مصر لم توفق إلى كثير .

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد :

وبعد وفاة القائم بعد حكم قصير جاء ابنه المنصور أبو طاهر ، وفي أيامه
انفجرت ثورة أهل أفريقية والمغرب يقودها رجل من نكارية الإباضية يسمى
أبا يزيد مخلد بن كيداد ويلقب « بصاحب الحمار » .

وكان أبو يزيد في أول أمره معلم صبيان ، وفي هذه المهنة قضى معظم عمره ،
فلما اشتد غليان أهل المغرب غضباً على الفاطميين ، تزعم هذا الرجل وقبيله
الثورة ، وظهر الرجل في أول أمره بمظهر الزهاد المتسكين ، فكان يركب حماراً

هزياً يتنقل به بين الجبال والقبائل فلقَّبَ بصاحب الحمار . وكان الرجل مسناً عندما بدأ الثورة إذ كانت سنه تقارب السبعين . وقد انضمت إليه القبائل في حماس شديد ، وأيده أهل أفريقية إذ أنه لم يكشف عن نحلته الإباضية النكارية ، وإنما زعم أنه تآثر للعدالة والإسلام وكراهة البدع ، التي أراد الفاطميون إدخالها على العقائد والعبادات ، وتمكن الرجل من اجتياح بلاد الفاطميين وألجأ المنصور الفاطمي إلى التخفي في المهدي وحصره فيها .

ولكن حركة أبي يزيد كانت ثورة دون خطة ، فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حائراً ماذا يصنع ، وأساء السيرة مع كثير من القبائل مما قلل الثقة فيه ففر الكثير من القبائل منه . وانتظر المنصور في حصنه حتى إذا ما رأى أن ذلك التآثر يتفرق عنه رجاله ويضعف ، أرسل إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي فأقبل برجاله ، وتغلبوا على التآثر الذي انصرف عنه الناس ، ففر إلى الأوعار ، ومازال رجال الفاطميين يتعقبونه حتى قبضوا عليه ، فقتلوه وسلخوا جلده وحشوه فيما يقول الرواة قطناً وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد أفريقية .

بهذا انتهت ثورة أبي يزيد ، وبنهايتها انتهت أيضاً قوى الفاطميين في المغرب، فقد تزعزعت دولتهم إلى قواعد بنيانها ، وخاف المنصور أن يسيطر عليه الصنهاجيون أصحاب القوة في دولته . فارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف عنهم وأذى لهم . وعندما توفي وجاء ابنه المعز كان باب الخلاص الوحيد الباقي أمامه هو غزو مصر والانتقال إليها .

وذلك كان هدف الخليفة الفاطمي الرابع في المغرب وهو أبو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله ، الذي تولى الملك شاباً في ذي القعدة سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م .

غزو مصر ثم الانتقال إليها :

ولا نزاع في أن المعز كان أقدر الفاطميين وأبعدهم نظراً ، فقد رأى بوضوح أنه لن يستطيع الاستمرار في المغرب ، فقد نفر الناس في أفريقية من بيته ورموهم عن قوس واحدة ، ثم إن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط لم تكن تؤدي إلى نتيجة ، لأن آل بلكين بن زيري الصنهاجيين كانوا أصحاب القوة فيه ، وهم خلفاء الفاطميين فلا مطمع فيهم ، أما في المغرب الأقصى فإن الأمويين الأندلسيين أيام

الحكم المستنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كانوا يرون أن الفاطميين خارجون عن الإسلام وحربهم جهاد ، فكدس الجانب الأكبر من قواه فى حربهم فى المغرب ورماهم بخيرة جنده وقواته ، وتمكن من طردهم من المغرب الأقصى والقضاء على أنصارهم واستألف الأدارسة .

ومن حسن حظ المعز أنه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالبة الفاطميين هو جوهر الذى يلقب « بالصقلى » . فقد كان قائداً ماهراً وجندياً مخلصاً ورجلاً صاحب سياسة ونظر وتدبير . وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط ، ودخل مرة أخرى مدينة فاس وغزا بلاد تافيلالت ، عاد ليبلغ سيده الأمل فى أفريقية أو المغرب ، وأن الأمل الوحيد الباقى هو فى الاستيلاء على مصر .

وكان كافور الإخشيدي قد توفى ومضى لسبيله وانتهى أمر الإخشيديين ، وفى تلك الاثناء كان المعز وقائده يعدان العدة لغزو مصر معتمدين فى ذلك على الكتاميين ، بعد أن صالحوهم ودخل فى خدمتهم رجل من أقدر رجالهم هو جعفر ابن فلاح وكان من قواد جوهر الصقلى .

ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر ، فقد وضع المعز تحت تصرفه كل ماكان لدى الفاطميين والكتاميين من قوة ومال . وفى شعبان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م دخل المعز الإسكندرية ، ولأول دخوله إياها أعلن فى بيان رسمى تخليه وتخلي دولته عن فرض المذهب الشيعى على أهل مصر ، وأحسن معاملة الناس ومناههم الخير الكثير والعدل الشامل ، فطاعوا له ، وبذلك بدأ فى تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمى ، الذى يطيل نفر من المؤرخين الإطناب فى فضائله . وبدأ فى تاريخ الفاطميين أيضاً عصر جديد ، فقد تخلوا عن المذهبية فيما يتصل بعلاقتهم بالناس ، وقد اتعظوا فى ذلك بتاريخهم فى أفريقية .

وفى نفس الوقت وضع جوهر أساس مدينة القاهرة ، لتكون مدينة ملوكية وحصناً للفاطميين ، لكى ينتقلوا من قلعة المهديّة إلى قلعة القاهرة . فلم يكن البيت الفاطمى على طول تاريخه وبعُد صيته بيتاً من بيوت الحكم المحبب إلى الناس أو الوثيقة الصلة بهم . فكما كانوا غرباء فى المغرب سيكونون غرباء فى الشام ، وفى كل موضع وصل سلطانهم إليه .

تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب :

دامت خلافة الفاطميين في المغرب نيفاً وستين سنة هجرية (من ٢٩٧ — ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٧٣ م) فهي نحو ستين سنة ميلادية ، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، فلم تخرج عن سلطانهم منه إلا منطقة تلمسان ، ودخلت في خدمتهم قبائل مغربية عفوية غنية بالملكات والقدرات ، وكانت قاعدة ملكهم أفريقية ، وهى قاعدة حضارة وقوة ذات قدر عظيم . فإذا أضفنا إلى ذلك صقلية ، تبينا أن ملك الفاطميين في المغرب كان واسعاً وعريضاً ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا للبلاد وأهلها خيراً كثيراً .

ولكننا عندما نجىء للحساب الختامى لتلك الفترة نجد أن الفاطميين لم يقدموا للبلاد التى حكموها فى المغرب أى خدمة إيجابية ، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهديّة ، وتلك كانت قاعدة خاصة لهم ، أما القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمنستير وغيرها فلم يخلف الفاطميون فيها أثراً ، بل هم لم ينشئوا مسجداً واحداً يذكر لهم بالخير غير مسجد المهديّة ، وكان مسجداً خاصاً .

وكانت سياستهم تقوم على جشع مالى بالغ ، فقد كانوا يجبون من المال مقادير طائلة كلها بالظلم والإيهام ، وكانوا يحتجزون الأموال ويستخدمونها فى المتاجرة أو فى شراء جند يقوم بغزوات تعود عليهم بغنائم ، ولم تكن لديهم أى نية فى زيادة عمران المغرب ، فلا هم شقوا طريقاً ولا أنشأوا سوقاً ولا نفعوا قبيلة من القبائل التى خدمتهم ، بل إن كتامة التى استنفدت قواها فى قضيتهم بادت أو كادت . وفى العصور التالية كان بقايا الكتامين يتبرأون من تهمة القيام بالدعوة الفاطمية . وقد كانت أفريقية بالنسبة لهم مستقراً ومصدر ثروة وخطوة إلى وهم بعيد بخلافة تحل محل الخلافة العباسية . وعندما غادروا أفريقية إلى مصر ، صغر حجمهم فيها وابتلعتهم وصاغتهم على طرازها فخفّ حماسهم لمذهبهم الشيعى ، ولم يستطيعوا استغلال البلاد على النحو السيئ الذى فعلوه فى المغرب ، لأن دافع الضرائب المصرى وهو الفلاح ، خبير بشئون الحكام

ومظالمهم ولديه أكثر من وسيلة للتخلص من ظلمهم ، ومع ذلك فقد قضى الجشع الفاطمي على معظم صناعات مصر التقليدية القديمة وخاصة صناعة النسيج في شمال الدلتا ، ثم كان الصراع بينهم وبين زراع مصر مؤدياً في النهاية إلى ما يعرف بالشدّة المستنصرية ، وهى أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الإسلام ، ومن السذاجة أن نعللها بتوقف الفيضان سبع سنوات متوالية ، وإنما هى نتيجة للسياسة المالية الفاطمية التى لم تعرف حوليات الإسلام أشد جشعاً منها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة ، فهم مثلاً عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا إنجادها ، فحرموها بذلك من عون بنى زيرى وهى امتداد طبيعى لأفريقية . ولولا أن المقادير تداركت صقلية ببني الحسن الكلبين ، ابتداء من سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م لضاع أمرها بعد انتقالهم إلى مصر بقليل .

وقد أجاج الفاطميون نيران العصبية القبلية في المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض في حروب إبادة ، بل هرب بعض زعماء البربر إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من صراع القبيلة في المغرب . وعندما تركوا آل زيرى مكانهم عندما رحلوا إلى مصر ، تركوهم غارقين في ثارات القبيلة مما عجل بزوال ملك بنى زيرى . وخاصة بعد أن قذفهم الفاطميون ببني هلال كما سنرى ، وما هو إلا قليل حتى انتهى أمر المغرب إلى سلطان قبيلتين من أعتى قبائل الزناتيين وأكثرها إفساداً وهما « مغراوة وبنو يفرن » . ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين فالموحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية التى كانت أيضاً من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام في الأندلس .

والشئ الوحيد الذى يمكن ذكره للفاطميين في المغرب هو نشاطهم البحرى ، فقد كانت أساطيلهم تسيطر بالفعل على مياه الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، ولكن قوة الفاطميين البحرية لم تظهر بكامل قوتها إلا خلال الفترة المصرية من تاريخهم .

دولتنا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغرب الأوسط :

توقيت: (١)

أبو الفتوح (بلكين) بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م

أبو الفتوح المنصور بن يوسف ٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م

نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور

٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م

المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور ٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م

تميم بن المعز ٤٥٣ - ٥٠١ هـ / ١٠٦٢ - ١١٠٧ م

يحيى بن تميم بن المعز ٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٦ م

على بن يحيى بن تميم ٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ - ١١٢١ م

الحسن بن على ٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م

أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م :

تقول الروايات التاريخية التى بين أيدينا : إن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر ، عرض على جعفر بن على بن حمدون الزناتى ، أن يتولى أمور أفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين فى مصر ، فاشترط جعفر بن على بن حمدون أن يكون أميراً مستقلاً يتصرف بما يراه دون انتظار رأى المعز ، ويولى القضاة بنفسه ولا يرسل أى مال إلى مصر ، فرفض المعز ذلك ، لأن معناه انفصال ولاية أفريقية عن الفاطميين تماماً واستقلال هذه البلاد بنفسها .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان من أكابر رجال صنهاجة ، وعرض عليه الولاية فقبلها بشروط المعز وهى : البقاء

(١) ليس الغرض من إيراد هذه التواريخ حفظها بل الاكتفاء بأهمها والاستعانة بها فى ضبط سير الحوادث .

تابعاً للفاطميين تماماً ، والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في أفريقية والمغرب . ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز : « قتلتنى يامولاي بغير سيف ولا رمح ! » ويريد بذلك أنه ينوء تحت حمل المسئولية التي عهد إليه المعز فيها .

وعند هذا أصدر المعز له عهداً بولاية أفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . ويقول ابن عذارى^(١) وابن خلدون^(٢) وابن الخطيب^(٣) أن المعز أوصاه وصية قال له فيها : « إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوص بالحضر خيراً » .

ونحن نستبعد هذه الحكايات لأن دولة الفاطميين في المغرب قامت على اكتاف الكتاميين الصنهاجيين ، فمن غير المعقول أولاً أن يفكر المعز في أن يعرض الولاية على زعيم زناتى ، مثل على بن حمدون هو بطبعه عدو للصنهاجيين ، ومن غير المعقول كذلك أن يوصى المعز نائبه على المغرب بالألا يرفع السيف عن البربر ، لأن ذلك النائب نفسه بربرى .

أما أن يوصيه بالألا يرفع الجباية عن أهل البادية فمفهوم إذا نحن قلنا إن المراد بأهل البادية هم البربر الزناتيون ، وكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر ولا يفكروا في الثورة عليها .

وكذلك يستبعد أن يكون المعز قد أوصى نائبه بالعناية بالحضر ، والحضر هم أهل المدن ، وأهل المدن لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين ، لأنهم ظلوا سنة يناوئون المذهب الشيعي .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المعز أوصى نائبه أبا الفتوح يوسف بن زيرى ابن مناد الصنهاجى بأن يواصل حملاته على المغرب الأوسط لحسم دائه ،

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٣١٨ .

(٣) ابن الخطيب ، أعلام الأعلام ص ٩٥ .

والقضاء على النفوذ الأموي فيه . وهذا معقول ، لأن الفاطميين ظلوا طوال تاريخهم أعداء الأمويين الأندلسيين ، خائفين من امتداد نفوذهم إلى المغرب .

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري بن مناد الصنهاجي والياً أو أميراً شبه مستقل ، لكل بلاد أفريقية بأقسامها الثلاثة : طرابلس وأفريقية وبلاد الزاب ، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط .

وللمرة الأولى في التاريخ أصبح رجل من صميم أهل المغرب رئيس دولة إسلامية في بلاده ، وكان عليه بعد ذلك أن يستكمل استقلال هذه الدولة ويهيئ لها أسس النظام والقوة ، وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامي في المغرب في دور جديد : دور الاستقلال ، فبعد محاولات شتى لحكم البلاد ، قام بها العرب البلديون ثم العرب من ولاة الدولة ، المؤيدون بالجند الرسمي للدولة (المهالبة) ثم من العرب البلديين المواليين للدولة العباسية (الأغالبة) ، ثم من العرب المؤيدين بقوة عسكرية بربرية (الفاطميون) . دخلت البلاد الآن في طور الاستقلال ، فإن بني زيري كانوا بيتاً بربرياً أصيلاً استعرب ودخل في غمار الجماعة الإسلامية العربية الكبرى . وسنرى أن بني زيري لم يلبثوا أن استقلوا عن الفاطميين وحاولوا النهوض بمسئوليات الحكم في بلادهم قدر ما استطاعوا ، ولم يكن توفيقهم بالقليل ، ولكنهم على أي حال كانوا دور انتقال من مرحلة التبعية للمشرق إلى دور الدول المغربية المستقلة الكبرى التي تبدأ بدولة المرابطين .

ويرى ابن خلدون في ذلك انتقالاً للملك والسلطان في المغرب من العرب إلى « أعياص (١) البربر » أي زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، الذين استعصى على الدولة الإسلامية العامة (العباسية) حكمهم ، فعصوها وانفردوا بالسلطان في بلادهم ، ومعنى هذا بتعبيرنا اليوم ، أن أفريقية والمغرب استقلا عن المشرق ، وهذه حقيقة ولكن الذي ليس بحقيقة هو محاولة المؤرخين الفرنسيين ، من أمثال هنري فورنل Henri Fournel في كتابه المسمى « البربر Les Berbères » وجورج مارسية في كتابه المسمى « بلاد المغرب الشرقية » (أفريقية والمغرب الأوسط ،

(١) والأعياص: جمع عاص وهو الرجل المعتر بنفسه المتأبى على الخضوع لغيره .

والشرق الإسلامي^(١) القول بأن هذا الانتقال كان تحقيقاً لأمل البربر القديم في الاستقلال عن العرب ودولتهم .

والمهم لدينا أننا الآن أمام أسرة بربرية مستعربة ، تتولى شئون أفريقية وتتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط . معنى ذلك في رأينا أن أهل المغرب تدرّبوا على يد العرب ، وأخذوا فكرة بناء الدول والنظم السياسية عنهم ، وبدأوا تجربتهم في الحكم الوطني المستقل دون أن يكون ذلك مظهراً لنزوع قومي مغربي نحو الاستقلال عن العرب ، كراهة فيهم أو رغبة في الانفصال عن جماعة الإسلام الكبرى .

ولكن ذلك الحكم الذي وصل إليه بيت زيري بن مناد الصنهاجي تؤيده قوات قبائل صنهاجية كبرى ، أثار في المغرب كله نيران العداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين ، كأنما كان خروج العرب من الميدان إيذاناً ببدء الصراع المرير بين زناتة وصنهاجة على السيادة في المغرب .

وكان أول مظاهر هذا الصراع هو شعور جعفر بن علي بن حمدون الزناتي ، كبير زناتية أفريقية وشرق المغرب الأوسط ، بأنه لم يعد آمناً في بلاده ، فبارح أفريقية لاجئاً إلى الحكم المستنصر في الأندلس ودخل في خدمته ، ورحب به الحكم المستنصر ، إذ إنه كان عدواً للفاطميين ، وعقب ذلك ثار الزناتيون في أفريقية وانتفض الزناتيون في تاهرت أيضاً ، فسار نحوهم بلكين (يوسف) بن زيري لإخضاعهم ، ودخل على تاهرت وخرّبها ، ثم عاد دون أن يسترسل إلى غزو الزناتيين في المغرب الأقصى ، لأن المعز كان قد نصحه بالأيوغ في غزو المغرب .

وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨ م أضاف المعز إلى ولاية يوسف بن زيري ، طرابلس وصرت وأجدابية ، فولى عليها يحيى بن خليفة الملياني ، وهكذا نجد أن ولاية المعز اتسعت في الشرق حتى صارت عند حدود برقة .

ولم يسكت الزناتيون على غزو المغرب الأوسط وتخريب تاهرت ، فسار زعيم زناتي وهو خزرون بن قفل بن خزر الزناتي نحو سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ /

(١) انظر فهرس المراجع في نهاية الكتاب تحت : George Marçais .

٩٧٦ م وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاكر لله المدراري ، وكان من أنصار بنى زيرى ، وأرسل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموى فى قرطبة ، فشجعه هذا على غزو فاس ، فدخلها سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وبهذا يكون الأمويون القرطبيون وحلفاؤهم الزناتيون ، قد تمكنوا من إثارة المتاعب فى وجه بنى زيرى التابعين للفاطميين فى مصر . ويلاحظ أن الخليفة المستنصر بالله الأموى كان شديد العداء للفاطميين إذ أنه كان يرى فى المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى نادى به الفاطميون نوعاً من الكفر والخروج على الإسلام ، أى أنه كان يعتبر حربه للفاطميين وأتباعهم جهاداً فى سبيل الله . وعندما استولى على السلطان فى الأندلس المنصور بن أبى عامر سار فى هذه السياسة ، بل اندفع فيها اندفاعاً شديداً .

وإزاء هذه السياسة الأندلسية الواضحة ، نجد أبا الفتوح يوسف بن زيرى يسير لغزو المغرب الأقصى ويدخل فاس ، ويقتحم أصيلاً وشالة على ساحل المحيط الأطلسى .

وتوفى أبو الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى وهو عائد إلى أفريقية سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطاً واسعاً ، وقام بالمهمة التى عهد إليه الفاطميون فيها خير قيام ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يُنَبِّئ أركان ملكه ويمهد الطريق لاستقلاله بالمغرب الإسلامى ، وقد وقع فى أثناء ذلك فى خطأ كبير وهو إثارة مخاوف الزناتيين ودفعهم إلى الاستعانة بالأمويين فى قرطبة .

أبو الفتوح المنصور بن يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى

٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م :

كان أبو الفتوح المنصور بن أبى الفتوح يوسف بن زيرى قبل توليه الإمارة والياً على الزاب ونائباً عن أبيه فيه . وكان أول ما عمله بعد توليته ، أن أقام معه

أبا البهار بن زيرى بن مناد عاملاً على المغرب الأوسط وجعل مركزه تاهرت ، وأقام في نفس الوقت أخاه يطوفت بن يوسف بن زيرى والياً على أشير في المغرب الأوسط ، وأوصاهما بالتعاون معاً على حماية المغرب الأوسط من أى عدوان يحاوله الزناتيون . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد يحكم الأندلس باسم خليفته الشرعى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، قد أيد زعيماً زناتياً ، هو زيرى بن عطية المغراوى الخزرى وأعانه على بسط سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس .

ووجد أبو الفتوح المنصور بن يوسف أنه لا بد من مواصلة الحرب ضد الزناتيين سادة المغرب الأقصى . فأرسل أخاه يطوفت في جيش كبير نحو فاس واحتلها ، ولكن زيرى بن عطية الخزرى المغراوى الملقب بالقرطاس ، تصدى له وهزمه في معركة قتل فيها ألوف الصنهاجيين ، وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيرى الصنهاجيين للتدخل في شئون المغرب الأقصى ، فأصبح هذا الأخير تحت سيطرة الزناتيين يؤيدهم الأمويون في الأندلس .

وعندما انشقت جماعة من الزناتيين على زيرى بن عطية المغراوى ، وانضمت إلى أبى الفتوح المنصور وشجعتة على غزو المغرب الأقصى ، لم يستجب لهم بل اكتفى بإقامة كبير هؤلاء الزناتية على طبنة في الزاب .

وثار عليه داع شيعى يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٢٧٦ هـ / ٩٨٦ م ولكنه تمكن من التغلب عليه .

ونلاحظ أن دولة بنى زيرى في أيام أبى الفتوح المنصور ثانی أمرائها ، فقدت الكثير من قوتها واقتصر أمرها على بلاد أفريقية والزاب ، حتى وادى شلف ، أما سيادتها على المغرب الأوسط فكانت اسمية فقط ، وسنلاحظ أن ولاية المغرب الأوسط من بنى زيرى سيستقلون به بعد قليل .

ومن الواضح أن بنى زيرى ما كانوا ليستطيعوا سيادة بلاد أفريقية ، من حدود مصر إلى وادى شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية ، لأنهم كانوا رجال دولة صغيرة محدودة القوى ، الامكانات ، وكانت تبعيتهم للفاطميين

تضعف من جانبهم ، لأنها كانت تفرض عليهم المذهب الشيعي ، وكان أهل المغرب ينفرون منه ، يؤيدهم في ذلك الأمويون الأندلسيون .

نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور

٣٨٦-٤٠٦ هـ / ٩٩٦-١٠١٥ م :

لم يطل حكم أبي الفتح المنصور ، إذ أن الموت عاجله وهو في سن الشباب بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة هجرية ، وخلفه ابنه باديس الذي تلقب بنصير الدولة وكانت سنه ١٢ سنة ، فقام بالأمر أعمامه وأكبرهم يطوفت بن زيرى والى تاهرت وحماد بن يوسف الذي تولى أشير في المغرب الأوسط أيضاً .

ورفض الزناتيون الطاعة للأمير الجديد ، وقامت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد نحو خمس سنوات من الحروب الدامية ، استقر الأمر بعض الشيء لباديس بن أبي الفتح المنصور في أفريقية سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م . أما المغرب الأوسط ، فقد تولى أمره حماد بن يوسف بن زيرى ، وهو عم باديس ، وخاض حروباً طويلة مع زيرى بن عطية المغراوى شيخ زناتية المغرب الأقصى ، وكان النصر في النهاية لحماد بن يوسف ، على زيرى بن عطية الزناتى ثم ابنه ماكسن بن زيرى . وفي سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م وجد الزناتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومة بنى حماد الصنهاجيين إلى مالا نهاية ، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم ، ماكسن بن زيرى بن عطية ، الذى خلف أباه زيرى وولديه محسن وباديس ، في معركة دامية ، فاضطر زاوى بن زيرى (آخر أولاد ماكسن) إلى الهجرة إلى الأندلس مع ابنه حباسة وحبوس ابنى ماكسن ، ودخلوا في خدمة عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر ، وكان لهم ولمن هاجر معهم دور غير حميد في الفتنة الأندلسية التى وقعت بعد ذلك بقليل .

وكان لانتصار حماد بن زيرى على الزناتيين في المغرب الأوسط وتأمينه حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، أكبر الأثر في تثبيت سلطان بيته في

المغرب الأوسط . ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بنى عمه أصحاب أفريقية ، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بنى عمه في أفريقية .

وتوفي نصير الدولة باديس سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بعد حكم قصير غير مستقر ، انقضت في حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ، ومع بنى عمه بنى حماد أصحاب القلعة من ناحية أخرى .

المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف بن زيرى

٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م :

تولى المعز بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م وكانت سنة ثمانى سنوات ، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد . وبدأ يحكم منفرداً حوالى سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وقد أبدى مهارة كبيرة في إدارة شئون الدولة وخاض حروباً طويلة مع خصومها ، وطال حكمه حتى قارب الخمسين سنة هجرية ، وكان رجلاً واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج مستقل ، ولكن الظروف التى أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء حكمه الطويل ، حالت بينه وبين التوفيق الكامل الذى كان يرتجيه ، فتدهورت الدولة وتفككت وحدتها رغم ما بذل من جهود كبيرة في سبيل الحفاظ عليها ، ولكنه كان ، كما يقول ابن خلدون : « أميراً همماً حازماً سعى الطالع فلم يوفق إلى كثير » . ورغم ما أصاب الدولة في أيامه من تصدع ، وما انتهى إليه أمرها في آخر أيامه من انهيار ، فهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وقد أثنى عليه معظم مؤرخينا القدامى وخاصة ابن خلدون .

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك ، وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بنى حماد . وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز . وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام

المعز ورجاله تقدم حماد يطلب الصلح على أساس أن يكون تابعاً للقيروان ، وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط . وتم الصلح في صفر ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، ونستطيع اعتبار ذلك الصلح بمثابة تاريخ لميلاد دولة بني حماد المستقلة في المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد في شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطان في القيروان ، إلا أن المشاغل الكثيرة التي أحاطت بهؤلاء الأخيرين ، جعلتهم عاجزين في الواقع عن القيام بأي محاولة جدية لإجبار بني حماد على طاعتهم . ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية والتعاون في أثناء الأخطار التي تهددهما معاً ، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين في طريقها .

وهناك من يرون أن قيام دولة بني حماد أصحاب القلعة ، يعتبر نقطة بداية تاريخ المغرب الأوسط ككيان سياسى مستقل داخل الدولة الإسلامية العامة . وهذا صحيح إلى حد ما ، وإن كان لا بد أن نعود إلى السوراء إلى دولة بني رستم الصنهاجيين . لكى نصل إلى البداية السياسية لتاريخ المغرب الأوسط الإسلامى ، وهو يقابل معظم بلاد الجزائر الحالية .

انفصال دولتي بني زيرى عن الفاطميين :

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمى بدولته وأهل بيته وكبار قواده وجنوده وذخائره ، بل برفقات أجداده إلى مصر ، لم يعد لأفريقية في تفكيره السياسى مكان كبير رغم أنه لم يتنازل قط عن تبعية هذه البلاد له ، وظل يتمسك دائماً بأن يظهر بنو زيرى الولاء التام والكامل نحو الخلافة الفاطمية في القاهرة ومذهبها الشيعى الإسماعيلى .

ولكن الظروف الجديدة التى أحاطت بدولة الفاطميين في مصر كانت تحول بينهم وبين إحكام قبضتهم على أفريقية ، فقد غرقوا في شئون مصر ومشاكلها ، وفى خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، كانت مصر تسير — رغم التقلبات السياسية الكبيرة التى مرت بها — في الطريق الذى جعلها أواسط هذا القرن أضخم وأقوى وحدة سياسية في الشرق الإسلامى كله ، فقد تمتعت البلاد

بأمان كامل من الأخطار الخارجية ، وعلى الرغم من ضعف الدولة العباسية وعجزها عن القيام بشئون دولتها ، إلا أن مصر سارت في طريقها التاريخي الطويل بفضل الطولونيين أولاً ثم الإخشيديين بعد ذلك .

فظهرت من جديد على مسرح التاريخ دولة قائمة بذاتها داخل إطارها الجغرافي الذي عرفها الناس فيه من آلاف السنين ، وانتظمت أمورها الإدارية الداخلية دون هزات أو اضطرابات عنيفة ، وصدق عليها قول ابن حوقل الذي زارها في العصر الفاطمي : « ولمصر قانون ونظام ودولة » .

وعندما دخل المعز ورجاله مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وجدوا أنفسهم في بلد هو أضخم وأغنى بكثير مما تصوروا ، وذلك اقتضى منهم جهداً ضخماً في السيطرة على إدارة كبيرة مستقرة الإطار مثبات السنين . ثم إن إسلام أهل مصر كان يجتاز مراحلها الأخيرة ، وكانت الغالبية العظمى من سكان البلاد تمتد حتى بلاد النوبة ، قد دخلت في الإسلام ، وذلك بدوره اقتضى تغييراً شاملاً في إدارة الدولة وسياسة حكمها . وبينما كانت مصر الطولونية مثلاً دولة يغلب على سكانها الدين المسيحي ، ومن ثم فلم تكن بذات وزن كبير في توجيه شئون الدولة الإسلامية ، فإن مصر التي دخلها المعز كانت دولة غالبية أهلها مسلمون مستعربون أو عرب ، ونتيجة لذلك بدأت مصر تقوم بدور متزايد في عالم الإسلام . وكان على المعز وخلفائه أن يتولوا توجيه شئون مصر في هذا الدور ، ولكنه لم يحكم مصر إلا أربع سنوات .

وهذا كله جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام اللازم نحو شئون أفريقية والمغرب ، فتخلوا مرغمين عن السلطان الحقيقي عليهما ، واكتفوا من ولايتها بالطاعة الرسمية ، وفي نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيري في أفريقية والمغرب الأوسط يتحول إلى حقيقة واقعة ، ولم يعد من الممكن أن تعود أفريقية والمغرب الأوسط إلى التبعية للمشرق من جديد .

ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين - وخاصة جورج مارسيه - إلى أن ذلك كان نتيجة لنفور البربر من العرب وعدائهم لهم واتجاههم إلى الاستقلال عنهم ،

وهذا غير صحيح لأنه كان في الواقع كما رأينا نتيجة لتطور داخلي طبيعي داخل المغرب الإسلامي نفسه .

فكما استقلت مصر مثلاً عن الخلافة العباسية دون عداء - كان يكتنه شعب مصر للدولة الإسلامية العامة ، بل لأن هذا الاستقلال بطبيعته ، كان لابد أن يتم نتيجة لتطور مصر الداخلي - فكذا حدث في أفريقيا والمغرب ، لأن اكتمال الإسلام والاستعراب كان في كل مكان الخطوة الحاسمة نحو نضوج الوعي المحلي وظهور الشخصية الإقليمية ثم الاستقلال الحقيقي .

ومثل هذا يقال أيضاً عن انفصال المغرب الأوسط عن أفريقية وقيام دولة مستقلة فيه على يد بني حماد ، فلم يكن ذلك راجعاً فحسب إلى قدرة بني حماد وسياستهم ، بل كان النتيجة الطبيعية للتطور الداخلي في المغرب الأوسط الإسلامي من أيام بني رستم ، بل من أيام الثورة البربرية الكبرى . وفضل بني حماد يتلخص في أنهم قادوا هذا التطور في مراحلها الأخيرة ، وأعطوا استقلال المغرب الأوسط عن أفريقية صورته السياسية المحددة .

أما المغرب الأقصى فقد بدأت عملية الاستقلال تتجلى فيه من أيام قيام الدولة الإدريسية كما رأينا ، ومع أن الأدارسة لم يستطيعوا السير بعملية الاستقلال إلى نهايتها فسقطوا أخيراً تحت وطأة النزاع الضخم بين الفاطميين الشيعة من المشرق والأمويين السنيين من الشمال ، إلا أن المغرب الأقصى لم يعد بعد ذلك قط إلى التبعية ، لا إلى المشرق ولا أفريقيا والمغرب الأوسط . وكان عليه أن يشق طريقه في عُسر خلال القرن الرابع الهجري ، حتى إذا أهّل القرن الخامس كان الكيان الداخلي للمغرب الأقصى الإسلامي الغربي قد وصل إلى درجة النضوج ، فأخذت شخصيته المستقلة تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ، حتى أخذت صورتها الجلية على أيدي المرابطين كما سنرى .

وقد تمكن المعز لدين الله الفاطمي من المحافظة على تبعية بني زيري له ، لأنه اتبع معهم سياسة ماهرة تضمن له مظاهر تلك التبعية ، ولا تتعارض مع ما كان بنو زيري يطمعون إليه من الاستقلال في الحقيقة ، ثم إنه كما قلنا لم يحكم في مصر إلا سنوات أربع .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى هذا الأخير أن بنى زيرى يتجهون نحو الاستقلال بصورة ظاهرة أيام أبى الفتح المنصور ابن زيرى ، ففكر فى أن يضع العراقيل فى طريقهم ويعمل على إضعاف بنى زيرى حتى يظلوا دائماً فى حاجة إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل داعية شيعياً يسمى « أبى الفهم » لى يثير قبائل كتامة على أبى الفتح المنصور وفعلاً انضمت إليه جموع منهم ، ولكن المنصور انتصر عليهم وقتل أبى الفهم ، مما اضطر العزيز إلى العدول عن سياسة التدبير السيء من وراء ستار ، فعاد إلى مصانعة المنصور ومهادنته ، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م أى بعد انتقال الفاطميين من المغرب وقيام الدولة الزيرية بثلاثين سنة .

وعندما تولى الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين فى مصر ، كان عرش بنى زيرى قد انتقل إلى نصير الدولة باديس ، وهو أيضاً ثالث بنى زيرى على أفريقية . فأراد الحاكم بأمر الله أن يختبر قوة نصير الدولة ، فأرسل إلى واليه على برقة (وكانت جزءاً من مصر) يأمره بالاستيلاء على طرابلس (وكانت جزءاً من ولاية أفريقية والمغرب) وبالفعل استولى إلى برقة على طرابلس ، ولكن نصير الدولة باديس هزمه وأخرجه من البلاد ، وعاد الحاكم فحاول أن يعطى طرابلس للزناتيين أعداء الصنهاجيين ، فعهد إلى قلغل بن سعيد المغراوي الزناتى فى دخول طرابلس وحكمها ، ولكن نصير الدولة باديس تمكن من القضاء عليه وعلى أخيه من بعده ، وهنا نجد الخليفة الحاكم يعود إلى مصانعة باديس واسترضائه بالهدوء .

ولكن الأمر تغير عندما تولى الأمير المعز بن باديس فى ذى الحجة ٤٠٦ هـ / مايو ١٠١٦ م وكان المعز كما قلنا أميراً قوياً ، اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ، ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين وإلغاء المذهب الشيعى فى المغرب جملة . وقد تم له ذلك ، بعد تطورات كثيرة فى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فأعلن المعز بن باديس فى القيروان عودته إلى المذهب السنى المالكى ، ورحب شعب القيروان بذلك ترحيباً شديداً ، حتى قامت ثورة على من كان فى القيروان من الشيعة . وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم

بأمر الله ، يطلب منه عهداً بتوليته على أفريقية والمغرب ، فأرسل إليه الخليفة رايات سوداً وخلعاً سوداً ، وعهداً بالولاية . وهكذا انفصلت دولة بنى زيرى وبلاد أفريقية والمغرب عن مصر والمشرق كما قلنا ، وسار ذلك الجناح الغربى لدولة الإسلام فى طريقه من ذلك الحين .

دخول العرب الهلالية بلاد المغرب :

ينحدر بنو هلال بن عامر بن صعصعة وأبناء عمومته بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر ، ولكنهم كانوا يختلفون فى طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثراً فى الفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين .

وبنو هلال وبنو سليم الذين نتحدث عنهم يدخلون فيمن يسميهم ابن خلدون بعرب الجيل الرابع أو العرب المستعجمة ، الذين فقدوا خلق العرب الأول ، ولم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترك والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم ، ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها ، وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار دون أن يؤذن لهم فى دخولها وسكناها ، وقست عليهم الدول فأنحصروا فى صحرائهم ، وهناك اشتد بهم الفقر ، واعتمدوا فى معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق . وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحج وينهبونها ، حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون . « خولاً وأتباعاً للدول وشراً وبلاء على الحضر » .

إلى جانب ذلك فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة . وفسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم إلى ما يشبه لهجات البدو فى بعض نواحي جزيرة العرب اليوم ، وشابت لغاتهم ألفاظ وعبارات أعجمية ، فاستعجمت ألسنتهم ، ولهذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة .

وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ودخلوا بجيوشهم في عمان والبحرين ، واشتركوا في الحرب ضد الفاطميين في الشام ومصر والحجاز . وعندما تغلب المعز لدين الله على القرامطة وأرغمهم على الارتداد إلى البحرين انفصل بنو هلال وبنو سليم عنهم ومالوا إلى الفاطميين ، فنقلهم العزيز بالله الفاطمي إلى صعيد مصر ، وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل واشترط عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية ، وكان هدفه من ذلك الحيلولة بينهم وبين الانضمام إلى أعداء الفاطميين في المغرب . فأقام من انتقل من بنى هلال وبنى سليم في الصعيد الأعلى ، وأدوا الفلاحين إيذاء شديداً . فأما بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم في كتلة السكان في الصعيد ، وأما بنو هلال فقد ظلوا بدأ ، ومن أكبر قبائلهم « جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى والزواودة » .

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض ، « وعمَّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم ، كما يقول ابن خلدون^(١) وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر .

في ذلك الحين كان المعز بن باديس قد أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السني ودخل في طاعة الخليفة العباسي ، وكانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضده . وهنا خطرت ببال الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن ابن علي اليازوري فكرة إقطاع بنى هلال وبنى سليم بلاد أفريقية والمغرب ونقلهم إليها ، وكان رأيه أنه إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بنى زيري ، كان ذلك خيراً للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بنى زيري وعودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمي ورجاله ، فإذا حدث العكس وقضى بنو زيري على بنى هلال كان هذا خلاصاً من هؤلاء دون أن تخسر الدولة شيئاً . ولم يفكر هذا الوزير الفاطمي فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها .

(١) ابن خلدون - العبر ج ٦ ص ٣٠ .

ومع أن العرب الذين دخلوا مصر واستقروا فيها كانت غالبيتهم من بنى سليم ، فإن اسم بنى هلال غلب عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا أوغل في البداوة وأعنف من بنى سليم في معاملة الناس وإنزال الضرر بهم ، فأصبح الكل ينسبون إلى هلال بن عامر بن صعصعة وسموا هلاليين ، أو هلالية .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء ، بجموعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة ، وكان الخليفة الفاطمي قد أقطعهم أفريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه « ملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الأبق فلا تفتقروا بعد ذلك » .

وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ووجدوها خالية من السكان تقريباً بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من زناتة وقوات بنى زيرى الصنهاجيين ، فاستقر فيها نفر من بنى سليم فى برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وأفريقية ، فاستقروا فيها دون أن يلقوا مقاومة ، وأرسلوا إلى بقية بنى عمومتهم فى الصعيد يستدعونهم ، فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرياحى شيخ بنى رياح ، أحد فروع بنى هلال ، وكان رئيساً بدوياً شجاعاً مغامراً ، وكان له سلطان كبير على رجاله . فلما استقر فى طرابلس أصبح سيد هذا الإقليم الواسع ، وانعقدت له رئاسة بنى هلال وبنى سليم فى انتقالهم إلى أفريقية وتوغلهم فى أراضي بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين . ويصعب تقدير عدد بنى هلال وبنى سليم الذين دخلوا المغرب ، ولكن الأغلب أن الكتلة الأولى التى هاجرت منهم كانت حوالى ٥٠,٠٠٠ فرد ، ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ، ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف ، بما فى ذلك النساء والصغار .

تغريبة بنى هلال ونشوء ملحمة أبى زيد الهلالي :

وقد سميت هجرة بنى هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال أو « التغريبة » فقط ، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين فى طرابلس أول الأمر ، معارك طويلة مليئة بالمغامرات والوقائع ، وكانت أخبار هذه الوقائع تصل إلى الباقين منهم فى مصر ، فينظمها شعراؤهم فى صورة قصص شعبية عربى مصرى ، عُرفَ فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى « أبو زيد الهلالي » ،

أما خصمه فيسمى خليفة الزناتى أو الزناتى خليفة . وهذه الملحمة تعتبر من أشهر آثار الأدب الشعبي العربى وإن لم تكن من أكثرها جمالا ، ولكنها تمتاز بطابع شعبى خالص يجعلها شيئا فريداً فى الأدب العربى كله . ومن نماذج شعرها قول بدر الهلالى يخاطب بواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية بطة القصة ، ويرجوه أن يفتح له باب مكة ليزور قبر النبى ﷺ :

انا اول كلامى	مَنَحْتُ التُّهَامِ	تظله الغمامى	له الحج راح
يارب أزوره	واتمل بنوره	وأشاهد قبوره	وتلك النواح
واقول يا حبيبي	يامسكى وطيبى	مدحك من نصيبى	مسا ، مع صباح
لك يوم الهجىرى	غمامة تسرى	وانت البشرى	بكل الصلاح
يابواب افتح لى	الباب المصفح	من دخله يربح	وينال الفلاح

وقصة بنى هلال فى الأدب تختلف عن وقائع التاريخ اختلافاً بيناً . فهى أشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ ، مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية مثل «أنشودة رولان» و«قصيدة السيد» . فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال عشقها فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فلم يرض أهلها عن الزواج بعد تمامه ، واحتالوا على الفتاة واسمها الجازية ، ومضوا بها إلى المغرب بعد أن خدعوا صاحبها . وفى المغرب زوجها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بزوجها الأول حتى ماتت ، ومات هو أيضاً هيماً بها بعد حرمانه منها . وتدور القصة بعد ذلك على محور الصراع بين قبائل بنى هلال بعضهم وبعض ، وما وقع لهم من الحروب فى المغرب ، وكلها تبدو للقارىء وكأنها أضغاث أحلام تضم بعض لمحات من الجمال الشعرى والقصصى .

استقر بنو هلال فى برقة وخرَّبوا مدنها مثل المدينة الحمراء (برقة) وأجدابية وامتد أذاهم إلى طرابلس وفزان ، وانتهى الأمر بأن سادوا معظم سكان هذه النواحي واختلطوا بهم .

وأما بنو هلال فساروا في جموعهم إلى أفريقية « كالجراد المنتشر لا يَمرون على شيء إلا أتوا عليه » كما يقول ابن خلدون^(١) .

ويسرف ابن خلدون في تفصيل ما أنزله للهلالية في أفريقية والمغرب من خراب . والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب ، يختلفون كل الاختلاف عن عرفنا من عرب الأجيال الأولى ، التي قامت بالفتوح الإسلامية المجيدة ، لأن بنى هلال لم يكونوا جيوشاً نظامية ، ذات هدف ديني أو قومي معنوي واضح ، كما رأينا في فتوح العرب الأولى ، وإنما كانوا بدواً ظلوا طوال تاريخهم بدواً ، ولم يغيروا طبعهم البدوي أبداً ، لأن طول إقامتهم في البوادي وقوة الدول عليهم وإخراجها إياهم من كل نطاق حضاري ، جعلتهم بدواً من قمة رأسهم إلى أخصص قدمهم ، فهم يتحركون ويتصرفون جماعياً . ويطيعون رئيس القبيلة ولا يعرفون رئيساً غيره ، ولا يرون في العمران إلا مجالاً للغارة والنهب ، وهم يغيرون على المزارع والمنشآت دون أن يتنبهوا إلى أهميتها وقيمتها ، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه ويعيئون فيها فساداً ، فهم يقتلعون الأبواب ويستعملون أخشابها وقوداً للنار ، ويطلقون قطعانهم في المزارع تاكل الحاصلات دون تفكير ، ولا يعتزون إلا بشيء واحد : « العصبية » فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لأي شيء آخر .

هذا كله غاب عن خاطر المعز بن باديس الذي تصور أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من صنهاجة ، وتصور أنه يستطيع اتخاذهم جنداً ويستغنى بهم عن الكتاميين وغيرهم ، ولهذا رحب بمؤنس بن يحيى الرياحي ، دعاه إلى الوفود عليه بقومه ، فكان في ذلك مستجيراً من الرمضاء بالنار . ذلك أن مؤنساً وقومه عندما دخلوا أفريقية أفرعوا المعز فزعاً شديداً إذ رآهم يخربون ويحرقون وينسفون المزارع ، دون أدنى تفكير . فسارع إلى القبض على مؤنس الرياحي ، وكان يقيم في القيروان وطلب إليه أن يخرج قومه من بلاده ولكن الأوان كان قد فات ، لقد دخل بنو هلال بلاد أفريقية وأنشبوها أظافرهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم .

(١) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٣١ .

واستنجد المعز بابن عمه حماد صاحب القلعة ، فاتجه بألف فارس واستصرخ زناته فأقبل إليه المستنصر بن خزون بألف فارس من زناته . وجمع هو جنده وانضم إليه بقايا العرب البلديين وهم عرب الفتح ، ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا للهلالية عندما دارت المعركة .

دارت المعركة بين أهل أفريقية ، يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية ، عند مكان يسمى « حيدران » قرب قابس في ذى الحجة ٤٤٣ هـ / أبريل ١٠٥١ م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظراً لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية في هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ، ولكن انفصال العرب البلديين عن جيش المعز أضعف صفوفه وجَزَّ عليه الهزيمة ، ففضى الهلاليون على جيشه تماماً . فتراجع وتحصَّن في القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها .

وعبثاً حاول المعز أن يصدهم عنها ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمرائهم دون جدوى ، وأخيراً اضطر إلى الانسحاب بجنده ونخائره إلى المهديّة ، وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل ، فى طرف لسان بارز فى البحر إلى شمال سوسة . وفى رمضان سنة ٤٤٦ هـ / ديسمبر ١٠٥٤ م ، دخل الهلاليون القيروان وخرّبوها تماماً كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وأفريقية وجعلوها حطاماً ، وقتلوا من أهلها من قُدرُوا عليه وتفرق الباقون فعَمَّ الخراب البلاد .

وقضى المعز السنوات الأخيرة من حكمه سجيناً فى المهديّة وشريط من الأرض حولها ، حتى توفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م بعد أن رأى بعينه خراب بلاده . وخلفه ابنه تميم الذى اقتصرت دولته على المهديّة وأجوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جربة .

وتعتبر هذه نهاية بنى زيرى فى أفريقية ، رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالمساحة التى ذكرناها من أرض أفريقية ، أما الباقي فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناته وصنهاجة ، وانقسمت البلاد إلى إقطاعات صغيرة وضاعت وحدتها .

وهذا هو الذى أطمع النورمان فى سواحل أفريقية ، وكانوا قد غزوا صقلية فى ذلك الحين ، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة أفريقية .

سقطت صقلية فى يد روجر الأول النورمندى بعد حرب قصيرة بدأت سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلاً سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج آخر المدافعين عنها وهو ابن الحواس بأهله وماله إلى أفريقية . وقد ظلت « قصريانة » تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم استسلمت وفى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت بلرم ، فانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وقد طالت الحروب بين تميم بن المعز والنورمان فى البر والبحر ، وتقلبت علاقاته معهم بين صلح وحرب ، وبعد وفاة تميم بن المعز جاء ابنه على بن تميم ابن المعز ، وبدأ بوضوح أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهديّة ، فاستنجد بالمرابطين ، وكانت دولتهم قد قامت فى المغرب الأقصى . وبالفعل قام أسطول مرابطة بغزو صقلية والاستيلاء على مدينة « نقوطرة » سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م .

وبعد انصراف المرابطين جمع « روجر » أو « رجار » أسطولاً ضخماً وأعلن على المهديّة حروباً صليبية . وعجز الحسن بن على بن تميم بن المعز عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهديّة سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وكذلك كل مدن ساحل أفريقية وطرابلس فى يد النورمان .

وظل الحال كذلك حتى تمكن الموحدون من طردهم وتخليص البلاد منهم .

نهاية دولة بنى حماد أصحاب القلعة :

توقيت :

حماد بن يوسف (بلكين) بن زيرى ١٤٩ - ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٥٤ م

القائد بن حماد ٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م

محسن بن القائد ٤٤٧ - ٤٥٤ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٢ م

بلكين بن محمد بن حماد ٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م

٤٨١-٤٩٨ هـ / ١٠٨٨-١١٠٤ م

الناصر بن علناس

٤٩٨-٥٠٠ هـ / ١١٠٤-١١٠٦ م

المنصور بن الناصر

٥٠٠-٥١٥ هـ / ١١٠٦-١١٢١ م

باديس بن المنصور

٥١٥-٥٤٧ هـ / ١١٢١-١١٥٢ م

العزیز بن المنصور

ذكرنا كيف انقسمت دولة بنى زيرى إلى دولتين ، إحداهما في أفريقية وعلى رأسها بنو زيرى بن مناد الصنهاجى الذين رأينا نهايتهم . والأخرى في المغرب الأوسط يتولاها بنو حماد أبناء عمومة بنى زيرى . وقد اتخذ بنو حماد مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بنى حماد . وكانت هذه القلعة هى حصن أمراء بنى حماد ، الذى يلجئون إليه وقت الخطر ، كما كان الحال مع المهديّة بالنسبة للفاطميين وبنى زيرى والقصر القديم بالنسبة للأغالبة والمنصورية بالنسبة للفاطميين في أخريات أيامهم في أفريقية ، وبلغ من ضخامة قلعة بنى حماد أن نسبوا إليها وأصبح اسمهم في الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة .

وقلعة بنى حماد تعتبر من أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون في تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد في الشام ، التى بناها الصليبيون في الشام واستولى عليها صلاح الدين ، وقلعة صلاح الدين في القاهرة ، فهى في الحقيقة مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قسبة ، أى حصن منيع داخل ، ومازالت بقاياها قائمة في بلاد الجزائر إلى اليوم .

ومن الملاحظ أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتتها أفريقية منذ قيام الثورة المغربية الكبرى في النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، جعلت الدول التى قامت هناك لا تعتمد على القبائل أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والجند المرتزق والسلاح .

وعندما ضاقت أشير عن أن تكون عاصمة دولة كبيرة بعض الشيء ، انتقل الأمير الناصر بن علناس بن حماد إلى مدينة بجاية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بعد أن أعاد بناءها وجدها وجعلها عاصمة دولته .

كان حماد بن يوسف بن بلكين بن زيرى ، أول أمراء هذه الأسرة ، وقد نجح في مدّ سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر المولوية . وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بابن عمه حماد أميراً مستقلاً على المغرب الأوسط سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م .

وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م صار عرش دولة بنى حماد إلى الناصر بن علناس بن حماد وهو أعظم أمراء هذه الأسرة ، وقد اتخذ بجاية عاصمة له كما قلنا وانتقل إليها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم المغرب الأوسط حتى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م .

وخلفه ابنه المنصور الذى بلغت الدولة أوجها في عصره ، وقد عنى المنصور ابن الناصر بن علناس بالمنتشآت والقصور . وفي أيامه أصبحت بجاية أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً .

وكان آخر أمراء هذه الدولة هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر ابن علناس . وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانته ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه . وأخيراً تمكن عبد المؤمن بن على ، أول خلفاء الموحدين ، من دخول بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وهكذا انتهت دولة بنى حماد . وبعد ثمانى سنوات ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م دخل عبد المؤمن ابن على أفريقية واستعاد المهديّة من النورمان ، وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب كله من طرابلس إلى المحيط الأطلسى على يد الموحدين .

دولتنا بنى زيرى فى الميزان :

تعتبر دولة بنى زيرى فى أفريقية وفرعها دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، من صغار دول المغرب ، فقد ظلتا أمداً طويلاً تابعتين للفاطميين حتى قام المعز ابن باديس بالاستقلال عنهم .

ودولة بنى زيرى أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعراهم ، وأصبحوا عضواً أساسياً فى جماعة العروبة والإسلام . وقد رأينا أن

أمراء هذه الدولة بذلوا جهداً مشكوراً في تنظيم البلاد وحكمها وإن شابت حكمهم قسوة وعنف ، سواء مع رعاياهم أو خصومهم . وكان فيهم ميل إلى الترف والبذخ ، ولكن ذلك كان على صورة بدوية ساذجة ، وقد أنفقوا في ذلك الترف الساذج أموالاً طائلة ، ونفروا بجفوتهم وقسوتهم الكثير من القبائل ، وقد استنفدوا قواهم في حروب عقيمة على مدى قصير ثم ظلت دولتاها تحتضران بعد ذلك ، ومهما كان الأمر فلم يكن بنو زيرى وأبناء عمومتهم بنو حماد أسوأ بكثير من غيرهم من أصحاب الدول في القرن الرابع الهجري وما يليه ، فقد تقسم العالم الإسلامي ، فيما عدا الأندلس ، كله إلى دويلات صغيرة يحكمها مستبدون بالأمر يهجمون على السلطة وينتزعونها انتزاعاً دون حق ، ويحكمون بقوة جنود مرتزقين يشترونهم بالمال ويسلطونهم على الناس ، ووسط هؤلاء العتاة والمستبدين الذين تقاسموا عالم الإسلام فيما بينهم ، من حدود الصين إلى حدود الأندلس ، يعتبر بنو زيرى وبنو حماد من أفضل هؤلاء الحكام وأكثرهم حرصاً على راحة رعاياهم ومصالح بلادهم . ويلاحظ أنهم على الجملة كانوا حريصين على إقامة العدالة في بلادهم ، ولم ينصرفوا إلى اللهو والعبث انصرافاً شائئاً كما نرى عند الكثيرين من أمراء هذه العصور ، وإذا كانوا لم يوفقوا في الوصول ببلادهم إلى أحسن مما استطاعوا ، فإن الذنب كله لم يكن ذنبهم ، وإنما يرجع ذلك إلى قلة نصيبهم من الحضارة والتنقيف فقد كانوا رؤساء قبليين في ثياب أمراء ، ولكنهم كانوا ذوى بسالة وهمة . وقد بذلوا أقصى ما في قدرتهم ، ثم إن بلادهم كانت فقيرة ، وكانت تحتاج إلى سنوات طويلة من الهدوء لتستعيد عمرانها بعد الفتن التي مرت بها . فلما وصلت الدولتان إلى الاستقرار المنشود ، أيام المعز ابن باديس وابنه تميم بن المعز في أفريقية والناصر بن علناس في المغرب الأوسط ، جاءت الغزوة الهلالية فكانت عاصفة قوضت دعائم الدولتين جميعاً .

بل إننا نلاحظ أن بنى زيرى وبنى حماد كانوا أحرص على التمسك بالدين واحترام رعاياهم أكثر مما فعلت دولة الفاطميين نفسها . وقد نهج بنو زيرى سياسة مغربية واضحة ، فلم يكن لهم اهتمام شديد بما كان يجرى في المشرق ، بل انصرفوا إلى محاربة زناتة وحاولوا حماية بلادهم من الأمويين في الأندلس .

وكانت الدولتان تجربتين موفقتين للحكم المحلى في المغرب ، وهما خطوة بين أفريقية التابعة للمشرق وأفريقية والمغرب الأوسط القائمين بأمر بلادهما دون تبعية أو سند خارجى . ولا شك في أن المعز بن باديس والناصر بن علناس يعتبران من عظام أمراء العالم الإسلامى في عصرهما ، وقد ساعدت سياستهما على إظهار شخصية المغرب الإسلامى وإعطائها ملامحها المميزة وسط بلاد العالم الإسلامى .

وقد قامت دولة بنى زيرى بدور كبير في تاريخ البحر المتوسط ، فقد وقفت في وجه النورمان وحدها زماناً طويلاً ، وكان المعز بن باديس وتميم بن المعز موضع احترام ملوك النورمان ، وكذلك كان الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد أصحاب القلعة ، نداء لـ « روجر » ملك صقلية النورمانية ، ولم يضعف أمر بنى زيرى أمام النورمان إلا بعد أن حطمت الغزوة الهلالية قواهم واستولى الأعراب على معظم بلادهم فأصبحت دولتاها صغيرتين ضعيفتين . ومع ذلك فقد كان نشاطهما البحرى عظيماً .

وقد ضاعت صقلية من أيدي المسلمين أيام بنى زيرى ، ولكنهم لم يكونوا مسئولين عن ذلك ، بل تقع المسئولية على الفاطميين الذين احتفظوا بصقلية تابعة لهم بعد انتقالهم إلى مصر ، وكانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا من هناك القيام بما كانت حماية صقلية تتطلبه ، ولكن أنانيتهم أبت إلا أن تفصل صقلية عن أفريقية ، التى كانت البلد الإسلامى الوحيد الذى يستطيع إنجاز صقلية ، وهكذا ضاع قطر إسلامى (هو صقلية) بسبب أنانية الفاطميين .

الرأى فى الغزوة الهلالية :

رأينا أن عرب بنى هلال وبنى سليم ، ومن انضم إليهم من عرب الجيل الرابع من قيس عيلان ، أنزلوا بأفريقية والمغرب الأوسط خراباً بالغاً كان له أبعد الأثر فى تاريخ البلاد ، وشرحنا أسباب الأعمال الهمجية التى قام بها أولئك الناس ، وجعلت مع دخولهم البلاد ، نكبة كبرى على تاريخها . بل يبلغ الأمر أننا فى تاريخنا للمغرب نقول : إن غزوة بنى هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب ، فقد

قضت على عمرانته وعلى جهود الدول الماضية في بناء حضارته ، فكان على أهله أن يعيدوا إنشاءها من جديد .

ولكن بنى هلال أدوا مع ذلك خدمة كبرى بالنسبة لعروبة المغرب ، فقد أضعفت مجموعهم قوى تلك القبائل الزناتية ، التي كانت تحاول سيادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة ، ثم إن الهلاليين انتشروا في كل ناحية في البلاد الممتدة إلى أحواز المغرب الأقصى ، وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس فكان عملهم هذا إكمالاً لتعريب المغرب ، فتحوّلت بلاد الجريد في تونس وبلاد المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) إلى بلاد عربية إسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربي . ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربياً على الصورة التي نراها الآن .

لم تكن الغزوة الهلالية إذن شراً خالصاً ، بل كانت شراً تأتي عنه خير كثير . وإذا كنا نفخر اليوم بالمغرب العربي ، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى أولئك البدو الذين عاشوا وانتهوا بدواً مخربين ، ولم يتعلموا قط الانتظام في دول أو احترام مظاهر العمران . ومن الأسف أن ابن خلدون عندما تحدث عن العرب في مقدمته كان متأثراً في كلامه وأحكامه بما فعله الهلاليون في المغرب ، فجاءت صورة العرب في المقدمة قاتمة جداً .

لقد غير بنو هلال التكوين البشري لأفريقية والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فيما بعد ، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربرية . ولقد أباد أولئك الهلاليون قبائل كثيرة ، ودفَعوا قبائل أخرى إلى الهرب أمامها نحو المغرب ، فخلت بلاد الجريد وقسطنطينة والزاب في أفريقية من أهلها الأولين ونزلتها بطون الهلالية وتكاثرت فيها ، وشيئاً فشيئاً ثاب إليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط الشعبان اختلاطاً تاماً ، فأصبح المغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمقها إسلاماً .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وإدماجه في الكتلة العربية ، فبعد جهود العرب الأول وصراعهم مع البربر وتحويلهم أفريقية

إلى بلاد عربية الحضارة واللسان داخلة في عالم السنة والجماعة ، جاء الأدارسة
فنثروا في أرض المغرب الأقصى بذور عروبة طيبة ، ثم أتى الهلاليون من المشرق
فبذروا بذوراً أخرى لم تلبث أن أثمرت ثم أينعت ، وإلى جانب ذلك كان مهاجرة
الأندلسيين يُقبلون إلى المغرب ، حاملين علماً كثيراً بثوّه في نواحي المغرب كلها .
وعندما تقوم دولة المرابطين تكون الأرض قد تمهدت لقيام الدولة العربية المغربية
الكبرى .
